# المحاضرة العاشرة: القصة الشعبية

القصة سرد لأحاث ماضية، فهي تتناول مجموعة من الأفعال حدثت أو يفترض أنها حدثت في زمن ما، يقوم بروايتها راو يوجه روايته(رواه الأفعال) إلى مستمع (مستمعون). فهي لا تتحقق إلا بوجود عناصر ثلاثة على مستوى الفعل الحقيقي، راو(سارد) رواية(مسرود)، مروي له(مسرود له) أو بتعبير آخر مرسل، رسالة مستقبل.

هذا من جانب الفعل (فعل الرواية)، أما من حيث الرسالة أو المسرود، فهي موجودة قبل الراوي، والمروي له، لأن نص القصة (الرسالة) نص موروث يستدعي من الزمن التاريخي، الزمن السابق لفعل الرواية، لأن عالم القصة له زمنه الذي هو زمن متخيل أو هو زمن يحمل جزءا من الواقعية التاريخية المعاشة في زمن ما. فهو زمن يناقض زمن الواقع الاجتماعي المروي فيه النص، لأنه لا يحكي واقعا آنيا، ولكن ربما يسقط الآنية على الماضوية محاولةَ إنتاج واقع جديد – نفسيا على الأقل.

ومن هنا يمكن أن نميز بين (( زمن القص وهو زمن الحاضر الروائي، أو الحاضر الذي ينهض فيه السرد. وزمن الوقائع، و هو زمن ما تحكي عنه الرواية ينفتح في اتجاه الماضي)). ويمكن القول إن النص المروي، اكتسب بعد منشئه صفة السيرورة الدائمة، الملاحقة لديمومة الزمن، و يكفي للراوي استدعاءه أنى له، ليحتل حيزا زمانيا آنيا. ويبقى الراوي دائما في حاجة إلى مروي له حتى يكتمل الفعل الروائي.

(( فالقصة الشعبية ليست قصة شعب بعينه، أو عصر ما وإنما هي قديمة قدم الشعب نفسه. فمنذ أن وجد على هذه الأرض فهو يحكي. يحكي يومه الذي يعيشه، يحكي أمسه الذي عايشه، فالحكاية تسايره ويسايرها حتى أصبحت جزءا منه ))

فإذا عدنا إلى هذا المصطلح، أو هذا الجنس الأدبي، فإننا نجده معروفا في الثقافة العربية، كغيرها من الثقافات الأخرى.

فالقصة في معناها المعجمي من فعل قص. و(قص) أثره قصا وقصيصا تتبعه. والخبر أعلمه. فارتد على أثارهما قصصا، أي رجعا من الطريق الذي سلكناه.

ويقال : قصصت الشيء إذا تتبعت أثره شيئا بعد شيء والقصة : الخبر وهو القصص.

والملاحظ أن المحور العام الذي يدور حوله اشتقاق فعل قص هو التتبع للأثر أو الأخبار عن الشيء وهو المعنى نفسه الذي يؤديه مفهوم القصة. ويدعم هذا ما جاء في الآيات التي تدل على ذلك منها قوله تعالى: ((نَحْنُ نَقُصُ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالحَقِ. إِنَهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِهِمْ وَ زِدْنَاهُمْ هُدَى)).

والنبأ هو الخبر. أي نحن نخبركم بخبرهم، استعمل الله سبحانه فعل (نقص) بدل (نخبر) لوقعها على النفس واجتذابها لسماع هذا الخبر.

فالقصة تخبرنا عن مجموعة من الأحداث الدائرة في الإطار العام للنص. أو أنها تتبع أثر سير الأحداث المتعاقبة التي تحركها شخصيات القصة. وتبقى الرواية تسير وراء أثرها من البداية إلى النهاية. فالمعنى المعجمي يكاد يكون –إن لم يكن– المعنى نفسه الاصطلاحي للقصة. ما دام يدل على الأخبار وتتبعها. سواء كانت هذه الأخبار حقيقية أم هي من صنع الخيال.

وهناك مصطلح آخر –أرى أنه من الضروري التطرق إليه– يستعمل للمعنى نفسه، ويؤدي الغرض ذاته وهو: الحكاية بدل القصة. لأننا إذا عدنا إلى الدراسات المختلفة للأدب الشعبي فإننا نجد البعض يتعامل مع النص المروي باسم الحكاية الشعبية.

والحكاية معجميا من فعل:

حكى: (حكوت) الحديث. احكوه كحكيته. أحكيه وحكيت فلانا وحاكيته شابهته. وفعلت فعله أو قوله. سواء وعنه الكلام حكاية نقلته.

وحكى الشيء حكاية : أتى بمثله وشابهه. وعنه الحديث نقله فهو حاك.

و(الحكاية) : ما يحكي ويقص وقع أو تخيل.

فحكى أو حاكى كلاهما تعني المشابهة. والحكاية مشابهة ومحاكاة للأفعال سابقة (( فالقصص من المحاكاة وهي أيضا طريقة لكسب المعارف، وطريقة لمعرفة أحوال الناس والأحداث التاريخية )) فالمحاكاة هي تقليد لواقع وهمي – أو يكاد – للوصول إلى غاية ما. فالقصة أو الحكاية إذا محاكاة لواقع حياتي. لكن فيما تتمثل هذه المحاكاة؟

هل هي تشبه كهف أفلاطون وعالم المثل المنعكس على جدار الكهف؟

أم على طريقة تلميذه ارسطو الذي أعطى لها بعدا آخر؟

منذ البداية عرفنا أن النص القصص موروث شعبي انتقل عبر الأجيال المتلاحقة و عبر العصور الزمنية المتتالية بواسطة قنوات مختلفة.

فالنص القصص يمثل لنا اليوم مجموعة من أجزاء حياتيه قد تشابه وقد تختلف عن حياتنا.

هل نعتبرها واقعية تاريخية واقعة؟ أم نعتبرها تصورا لواقع تاريخي افْتُرِضَ وُقُوعُهُ في الأزمنة الأولى حتى و إن كان يحمل دالة على وقوعه؟

نترك مبدئيا الإجابة عن هذا التساؤل و الذي أثار جدل بين المشتغلين بالدراسات الشعبية، بين من يرى أنها (النصوص) تصوير مزيف لواقع، تحاقبت عليه الأحقاب و تحول إلى سرد عجائبي خرج في أغلبه عن دائرة المألوف.

و بين من يرى أنه (تاريخ) أو شبيه به، دُوِنَ بطريقة التخلي عن الزمن، إما لعدم أهميته بالنسبة للراوي، أو لقادم الزمن فانمحى من الذاكرة، أو قُصد ذلك ليتحول إلى نموذج يمكن أن ينطبق على أي واقع آخر.

نترك هذا الموضوع ونستقرئ المحيط الذي يعيش فيه النص –مهما كان– حتى نأخذ موقعا ربما خلفته الدراسات العلمية له.

نعود إلى الأوساط الشعبية التي تمثل العمود الفقري لحاملي التراث. والتي يتمتع بقدر من البساطة الفكرية والتي لم يأتي عليها التحضر الذي سلخ الكثير منها عن أنفسها وقطع السبيل بينها وبين جذورها .

نعود إلى أفراد هذه الأوساط و إلى أيمانهم المطلق بتراثهم العقائدي الزاخر، والعاداتي المكثف بالدلالة. وأشكال المرويات الصادقة عندهم.

نسألهم عن حقيقة هذا التراث وعن مصداقية هذا الموروث.

لا أشك في أننا سنجد إجابتهم مؤكدة لتراكمهم المعرفي مهما كان. ولا انطلق هنا من فرضية تحتمل الحالتين. و لكن من المعايشة مع الكثير، الذين بقوا على فكرهم، وهم يمثلون اليوم ما كان سائدا قبل أن يجرف تيار المتغيرات المجتمعات الشعبية، وقبل أن تعمل مؤسسات (....) عملها في محاولة خلق إنسان آخر يفقد الكثير من نفسه.

النص القصصي (الشعبي) بالنسبة لهذا الإنسان حقيقة تاريخية وقعت بالفعل، وغرائب أحداثه حقيقة أيضا. وشخصياته كانت فعلا، ومارست الفعل فعلا. ويعلل لها أنها تتسم بسمات خاصة، لا يجب تكررها الآن. ويستدلون على ذلك من الأطلال الباقية كالأهرامات في مصر. و في الجزائر (مدغاسن) أو المدن الرومانية الباقية أثارها وأن بناتها (جهلة) والجهلة دالة على القوة وليس بمعناه المعجمي.

فإنسان القصة إنسان موجود ويحمل من ذاته قدرات لا تتعدى إلى غيره اللاحق به. وتصرفاته صادرة من وجوده المتفرد الذي لا يتكرر. إنه النموذج للإنسان الكامل في اعتقادهم. هذه النقطة أوردتها لأهميتها في نظري، حتى لا تفصل النص الشعبي عن فضائه ومنطلقاته العقائدية.

وحتى يكون للمجتمع الشعبي رأي في تصوره لثقافته وأدبه، ولا يبقى الرأي حكرا على الباحثين فقط. حتى وإن كان هذا الرأي مخالفا لهم. إلا أن له دورا في فهم بعض المظاهر الثقافية المختلفة.

ومن المفهوم السابق الحقيقية النص القصص بالنسبة للإنسان الشعبي إذ هو محاكاة لوقائع حدثت. وهذا ما ذهب إليه افلاطون –قديما– على أن المحاكاة تدل (( على العلاقة الثابتة بين شيء موجود ونموذجه، والتشابه بينهما ممكن، أن يكون حسنا أو سيئا، حقيقيا أو ظاهرا، فحين تحاكى طبيعة الأشياء بالحروف والمقاطع والكلمات والجمل تكون المحاكاة حسنة إذا دلت على خصائص الوجود، وسيئة إذا تجاوزت هذه الخصائص (...) وينحصر نجاح الفنان في نتاج محاكاة الأشياء على حقيقتها لا غناء فيها عن الحقيقة. فليست سوى خطوة للاقتراب من الحقيقة إذا كانت تلك المحاكاة صحيحة )) فالمبدع الشعبي يحكي أو يحاكي عن طريق الملفوظ أو اللغة أعمالا وقعت حقيقة بالنسبة إليه على الأرض في وجوده، فهو يستحضرها أو يعيد تمثلها على أسماع المتلقين و ((غاية المحاكاة أو التخيل هي الإثارة والحفز والاستفزاز إلى الفعل سواء صدق ما يخيل إليه من ذلك أم لا. كان الأمر في الحقيقة على ما خيل أو لم يكن))

وسواء استعملنا القصة أو الحكاية فالمدلول واحد وإن اختلف الدالان، وهو اختلاف لفظي، لأن كليهما يؤدي إلى معنى واحد، كما هو متشابه في الاشتقاقات المختلفة للفظين من الناحية المعجمية. ويبقى اختيار أحدهما على الآخر يخضع لرغبة المستعمل له، وليس على أساس اصطلاح دلالي.

والقصة الشعبية (( مجموعة من الأحداث مرتبة ترتيبا سببيا تنتهي إلى نتيجة طبيعية لهذه الأحداث، وتلك الأحداث المرتبة تدور حول موضوع عام هو التجربة الإنسانية نفسية أو اجتماعية)) بذلك تكون القصة الشعبية عبارة عن صورة اجتماعية متخيلة لما يجب أن يكون الواقع المفترض، تعتمد على التقويم والمواجهة أو هي ((استرجاع للواقع أو ما يتصور أنه بواسطة الكلمة)) وهذا الاسترجاع يقوم على مبدأ الحقيقة التاريخية لوقائع اندثرت، أو تآكلت، أو فقدت وظائفها المتنوعة، دلت عليها قرائن تبرز من خلال دلالات الأحداث المروية.

ومبدأ الحقيقة التاريخية لا يقوم على فعلية الحدث، وإنما على اعتقاديه الحدوث بالنسبة للقاص (الراوي) والمستمع معا.

وذلك انطلاقا من التراكمات السابقة أو الترسبات الباقية في مضمون النص القصص المروي باعتباره سجلا لأحداث وقعت في الزمن الأول الذي هو نفسه يحمل دلالات خاصة به.

هذا الزمن يخالف زمن السرد الآني، وحينها يصبح النص المسرود ((جزءا من حكايات العالم، وهي بالضرورة أصبحت حاجة فكرية و ثقافية استوعبتها العقل الإنساني عبر التاريخ وصيرها أداة لفهم العالم. و سر بقائها وديمومتها ليس إلا جانبا من حاجاتنا المستمرة لها))

وهذا ما ذهبت إليه المدرسة الأنثروبولوجية المقارنة و خاصة التطورية الجديدة التي ترى أن التطور الثقافي (( عملية شكلية زمانية Temporal Formelتبدو فيها الظواهر الثقافية كتتابع زماني من الأشكال (البناء و الوظيفة))) وذلك بعدم اختفاء بعض الأنماط الفكرية والتي تبقى (( تتنكر في أشكال حضارية جديدة لتخفي انتسابها إلى الفكر القديم)). هذه الأشكال تكونت عبر العصور وبقت تحتمي وراء معطيات فكرية أو روحية، وتصطبغ بصبغتها حتى تحتمي نفسها من الانقراض، من جراء تطور الفكر الإنساني .

وهذا ما نجده في بعض النصوص التي ترجع إلى عهود موغلة في القدم كانت شعائر دينية أو تتناول سيرة الآلهة، فطورت نفسها بما يتلاءم و المواقف الجديدة التي طرأت عليها. لما فقدت وظيفتها، وتحولت مع المتحولات الطارئة عليها وتشكلت بإشكال إسلامية في المجتمعات الإسلامية – مثلا – لَمَا أصبحت لا تتلاءم مع المتغير الجديد، فبقت عالقة في وحدات النص وأجزائه، بحيث يصعب الكشف عنها أحيانا، مما يجعل المتعامل مع النص يحتاج إلى مرونة في الاحتكاك معها وإلى جملة من الخبرات المعرفية للكشف عنها.

لكن على الرغم من ذلك بقت تؤدي مهمتها في خلق التوازن النفسي في المحيط الذي تدور فيه، وذلك من خلال تصورات اجتماعية كانت أو سياسية (....)

تقوم على الشعور النفسي العام، ولا تقوم على أساس التعامل مع قضية واضحة بالمعنى الواضح (الدقيق) مما يجعلها تميل إلى الجانب الافتراضي المحمول على الإيحاء، لما يجب أن يكون أو احتمال كونه، بدل التوغل في استعراض واقع معاش. وهذا ما يُكسب النص القصص الشعبي مرونة، وعدم الاستقرار على حال معين حتى تتشكل أو تتكيف والمعطيات الظرفية الطارئة مما يجعل إلى تأطير النص القصص في إطار يحده أمرا لا يتحقق وهو يعيش في فضاء الشفاهية يتلون في هيئات متنوعة تخضع للمحيط البيئي الذي يُتداول فيه.

والقصة الشعبية تسعى دائما (( إلى تحقيق الشمول الكلي بالتعبير عن جوهر التجربة الإنسانية، منطلقة من الخاص إلى العام غير متخلية عن تفرد التجربة. مستعينة إلى ذلك بالحدث الكبير الفاصل، وبالشخصية النمطية المحددة وبالفكرة الواضحة وبالتعبير العفوي البسيط)) هذه العناصر التي يعتمدها النص في بنائه الوظيفي للوصول إلى واقع، يحتمل أن يقع، و ما يجب أن يكون واقعا، حتى و إن جنح في أسلوب بنائه إلى العجائبية المفرطة في الغرابة، و صنع الجمال، و انفراطه في فضاءات وهمية مشابهة لما يحدث في عالم الأحلام. فإنه – رغم ذلك – يحقق رضا الطفولة الكامنة في أعماق الإنسان، هذه الطفولة تبقى أبدا تواقة إلى هذا الضرب من التصوير السريالي (( المجرد عن ملابسات العقلانية، و الادراك الشعوري الطبيعي، لتجسيد (في الفن و الأدب) حقيقة الذات الإنسانية في أخص حالاتها ابتعادا عن إطار العقل الواعي بالأشياء الموضوعية و ظواهرها، و أشكالها وأحجامها. كما تعودت حواسنا أن تدركها )).

ومن هنا تأتي القصة الشعبية على فلسفة بسيطة، هي محاولة فهم الإنسان للحياة فهما أوليا. من أثناء سعيه نحو التلاؤم مع الواقع، و إرادته في الوصول إلى الراحة و الاطمئنان، على الرغم من بساطتها إلا أنها لا تخلو من ذكاء و تأنق، كما تتسم بالعفوية و عدم التعقيد في تناولها للأحداث و القدرة الفائقة على التأثير.

هذه السمات كلها تعبر عن المزاج الشعبي الذي تهمه النتيجة التي يحققها النص في النهايـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــة،

(( والواقع أن القصة الشعبية لها فلسفتها ورؤيتها الخاصة والتي تتغاير – في الغالب– مع المقاييس التي تبدوا لنا غير منطقية بالقياس إلى ما تعودنا عليه من الأساليب العقلية في التحليل والتعليل، وإخضاع السلوك الإنساني إلى ما نعتقد أنه المنطق المعقول، بينما للقصة منطقها وعقلها الجمعي، يغدو فيه التعليل ألـلا منطقي هو المنطق )). وبذلك تحاول أن تخلق نظاما في عالم تسوده الفوضى وتحطمت فيه القيم، من خلال الارتكاز على بعض الأحداث المهيئة للبطل. هذه الأحداث تسجلها القصة الشعبية (( بصفة واقعية بالرغم من البعد الزمني الذي كثيرا ما يصبغ بصبغة خارقة، حيث أن الحدث المذكور قد وقع في أغلب الأحيان في الزمان الخالي )) ، هذه الواقعية أما أن تكون حادثة تاريخية وقعت في زمن له واقع تاريخي، ثم تحور هذا الواقع مع مرور الزمن، و على مِرَارَةِ الرواية المتعددة إلى واقع يغلب عليه النسج الخيالي الذي أحدثته الأزمنة المتتالية لوقوعه، حتى اكتمل النص على ما هو عليه الآن. غير أن المتفحص لجزيئاته يستطيع في كثير من الأحايين أن يرجعه إلى بدئه مستعينا بالقرائن الدالة عليه. ومن ثم يتحقق الحدث الذي تحمله القصة، وليست الواقعية هنا بمفهومها النقدي و لكن بحقيقية وقوع الحدث، إذا ما أُكتشف أصله التاريخي.

وأما أن تكون الواقعية واقعية للراوي و المتلقي بحقيقة النص الدائر بينهما، على اعتبار أن النص انتقل عبر الأجيال السابقة. و هذه الأجيال لها علاقة متعدية بالحقب السالفة، وهي بذلك موثوقة في نقلها لما وقع من أحداث، قد لا تتفق مع الواقع المعيشي بالنسبة للراوي و المتلقي، إلا أن زمانها يتلاءم معها.

وبالتالي فهي بالنسبة لهما أحداث واقعية لها خصوصيات الزمن الأول، الذي هو تاريخ مميز بالنسبة للعقلية الشعبية، لكن هذا التميز لا يتضح بالرؤية المعرفية بل تلفه هالة ضبابية يصعب الإدراك فيها، مما يجعل الإنسان الشعبي يتحولق حوله دون التقرب إليه،

بحيث يشكل مرجعية نفسية، بما يتاح له من فرص الهروب له نفسيا والاتكاء عليه روحيا، وهو يعاني من جدلية الصراع بين الخير والشر وبين الحق والباطل.

وواقعية الأحداث ما هي إلا (( تعبير عن رؤية كونية سحرية للعالم. رؤية لا تاريخية تنمحي فيها الحدود بين الأحياء و الجماد أو بين الثقافة والطبيعة، حيث تكتسب الأشياء والظواهر خواصا وقدرات مميزة )). ويمثل هذا الواقع المرحلة السابقة لنضوج العقل الإنساني الذي لم يقم على مبادئ العلل والمنطق وقوانين السببية.

لكن على الرغم من التغيير الحاصل في العقل البشري، تبقى القصة الشعبية وما تحتويه من أحداث – قد تستهوينا وقد ننظر إليها من ثقب – جزءا من الثقافة الشعبية التي لا تنضب. ويبقى تأثيرها لازما في كثير من أمورنا الحياتية، تتسلل جزيئاتها في حديثنا اليومي في أضراب أمثالنا وحكمنا وحتى في ثقافتنا الرسمية. فقد استلهم منها المبدعون الكثير من إبداعاتهم، حتى شكلت ظاهرة أدبية في الأدب الحديث والمعاصر.

ويؤكد أحد كتاب أمريكا اللاتينية ذي الشهرة العالمية وهو الكولمبي جارسيا ماركيس في إحدى قصصه التي تعتبر من أعظم قمم الأدب، وهي (مائة عام من الوحدة )، أن موهبته الأساسية هي حكاية القصص الأسطورية التي سبق له أن سمعها من أمه وجدته، والفضل يعود لهما و ينصح النقاد أن يسألوا أمه عن كل حادثة في قصصه لأنها الوحدية التي تعرفها بدقة.

والملاحظة الجديرة بالذكر، بعد هذه المحاولة في فهم القصة الشعبية، وإدراك كنهها، وعلاقتها بالفكر الشعبي المرتبط بالثقافة الشفاهية الممتدة في عمق التاريخ، أن نلاحظ أمرا مهما

– بالنسبة للدراسة – أن الراوي للقصص الشعبي لا يفرق بين الأجناس المروية ولا المتلقي أيضا.

فالنصوص المروية عندهم، متساوية ما دامت تؤدي غرضا من الأغراض متعه كانت أو عظه أو تاريخا أو ترفيها، إسماعا من أجل السماع، دون ذلك لا يهم.

لذا ارتأيت أن أضع الفواصل بين الأجناس المروية في القصة الشعبية الجزائرية. ولا أزعم أنها أجناس منفصلة وواضحة المعالم، يمكن فصلها بسهولة.

لأننا إذا عدنا إلى النصوص المروية نجد أنها متداخلة متشابكة. قد نجد في النص الواحد عدة نصوص؛ يضم القصة بالمفهوم السابق، ونجد فيه الخرافة، كما نجد فيه الأسطورة. هذا التداخل مرده إلى الرواة، حيث يعمدون إلى دمج النصوص؛ إما لكسب الوقت من حيث الطول و إما لإرضاء رغبة المستمع، حن يحس أن الرواية لم تحقق رضاه في النتيجة المرجوة التي تخيلها، فيلجأ القاص إلى نص آخر يربط بدايته بعلاقة قريبة مع نهاية النص الأول، و هكذا. أم أن عدة نصوص اختلطت أحداثها في ذاكرة الراوي، مما يضطره الحال إلى دمجها معا في نص واحد.

وهناك من النصوص ما كان في الأصل أسطورة دينية قديمة، فقدت وظيفتها الطقسية وتحولت مع مرور الزمن، وتعدد الرواية لها إلى قصة شعبية بعدما أصابها التغيير والتحوير في أحداثها، وشخوصها، وأُخضعت لمنطلقات فكرية فرضتها جملة من العوامل.

لذا وذاك قسمت النصوص المروية التي هي في مفهومها العام قصة أو قصص يقص ويحكى على المجتمع إلى:

قصة شعبية: وهي التي تتناول الحياة المعيشية العادية للإنسان والأمور الدنيوية المعتادة.

الأسطورة و هي حكاية – كانت – مقدسة تتميز موضوعاتها (( بالجدية والشمولية؛ فهي تدور حول المسائل الكبرى التي ألحت دوما على عقل الإنسان، مثل الخلق والتكوين، وأصول الأشياء والموت والعالم الآخر وما إلى ذلك. (...) تلعب الآلهة وأنصاف الآلهة الأدوار الرئيسية (فيها) )).

الخرافة. قصة بطولية ملآى بالمبالغات والخوارق تعتمد على العجائبية، أبطالها من البشر والجن والحيوانات ولا دور للآلهة فيها.